ساعدي المبتور ينبُض

مجد حمشو



ساعِدي المبتور ينبُض

مجد حمشو

الإهداء:

إلى تلك القذيقة الَّتي لم تُصب خاصرتي اليُمنى ولم تبتر ساعدي الأيسر، عندها سُنِحت ليَّ الفرصة لأكتبَ من بعدها ما حييت..

وإلى روحِ الدُّكتورةِ نوال السَّعداويّ

-أستاذتي في الفِكر والحياة-

وفاءً لِما تعلَّمته منها.

لا يُمكِن لهذا النَّصّ أن ينتهي أبداً..

اتّضاع

الكتابة فعلٌ أهليجيٌّ لا مناصَ منه.

أنتَ الآن في الهاوية، وفي الدَّركِ السُّفليّ إلَّا أنَّكَ تكتب، ولا تعرفُ لماذا؟

هل يُمكِنُ لمن يكون في قمَّة الهلع أن يكتب؟

الكتابة والأسئلة اليوميَّة:

إلى أين؟ لماذا نريدُ الإجابات؟ هل نستقبلُ الآلام بشكلٍ باردٍ وأجوف؟ ماذا تفعل إزاءَ كلّ الوجوديَّات المتبرّمة من حولك؟ كيف لكَ أنَّ تُصاب بفُصامِ الواقع وأنتَ في القاع؟ هل من مغزىً ما؟

أين هلعُكَ في موقفٍ يُرعبُ الوجودَ الإنسانيَّ بأسره؟ ما الأرقام، ولماذا نتعلَّقُ بها؟ لماذا نعرف؟

في انتظارِ نهايةِ الحياة وبدايتها، شعورٌ مُفعَمٌ باللَّاشيء. عالمٌ برُمَّتِه يتهاوى كما الوقت.

الشَّيخُ المُقدَّس، عدميَّةُ ورد، سوداويَّةُ الوجود، كتاباتُ حسام، ماضيك، أمير، خياراتُك المُوهَنة، الطَّلبة، ملابسُك الجديدة الَّتي تعجُّ بالحياة، تشيتشيكوف[1] ونفوسُهُ الميّتة، المُستنقع، انقطاعُك عن العالم بأسره، مبادؤُك الَّتي ما زالتْ راسخةً رُغمَ ضبابيَّةِ الوجود، مُحاوَلاتُك الدَّؤوبةُ لإثباتِ تأصُّلُ التَّنظيمِ ورسوخِه.

إلَّا أنَّ الزَّمن لن يجعلك تُكمِل جميعَ تُرَّهاتك .. فاجلس حيثما أنت واحتسِ مشروباً ساخناً لعلكَ تهدأ، أو حاول أن تحلُم بشيءٍ

---

[1] تشيتشيكوف بطل رواية "النُّفوس الميّتة" لنيقولاي غوغول **Nikolai Gogol** (1809-1852م).

آخر ؛ لعلَّك في حقائق الأحلام أو أوهامها تجدُ ضالتك .. فالأوهامُ عادةً تجد مرتعها في أذهان الحالمين .

نهاياتٌ مُفجعةٌ تكادُ تُكسّرُ ضلوعَنا.

حُلم

حلمتُ البارحة.. كانت المرَّةَ الأولى الَّتي أحلم بها.

لقد تجرَّأت وحلمتُ خارجَ السِرب، وخارجَ كفَّيّ الحبيب الخشنتين اللَّتين غارتا أحشائي وفتَّتها، وخارجَ الجدرانِ المُغلَقة على أنفاسي في بيتٍ قابعٍ في أحد الأحياء المرميَّة على ثقلِ الزَّمن... وربَّما خارجَ صوتِ البؤسِ والألم الَّذي يشيعُ الكوكب أيضاً.. وخارجَ الصَّرخاتِ الخائفةِ من الجائحاتِ والأوبئة.. وخارجَ أصواتِ الجياعِ والفقراء.. وخارجَ جسدي الَّذي لا يني ينزف .

في الحقيقة، ليس سهلاً على المرءِ أن يحلُمَ أبداً؛ فللحُلمِ ضريبةٌ ليس من اليسير دفعُها أحياناً... يحتاجُ الحُلم حنكةً ما!

شيءٌ ما خفيٌّ يتساءل: كيف يُمكِنك أن تُمارِس الحُلم في ظل هذا البؤس؟ كيف تحلم وحيداً؟ أين الآخرين؟ وأين أضواءُ المدينةِ القديمة الَّتي تخترقُ مساماتِ الجسد؟ أين أصواتُ النَّاس وضحكاتهم؟ وأين ضجيجُ مدنهم الَّتي تطفو فوق الزَّمن؟

ربَّما الحالمون مُترَفون قليلاً.

يلوي درويش برقبته لينظرَ إليَّ نظرةً شافقةً وعاتبة، ويُردّد: "ولنا أحلامنا الصغرى؛ كأن نصحو من النَّوم معافين من الخيبة، لم نحلم بأشياء عصيَّة".[2]

[2] من قصيدة "ههنا الآن، وهنا الآن" لمحمود درويش.

لكنّي أُحرّر جناحيَّ من قيوده وأصرخ: لا بدَّ لي من الحُلم، وأنقر بقدميَ على البلاط كصبيٍّ مُشاكِسٍ يُريد أن يحلم لا لشيء إنَّما ليخرجَ من تحتِ عباءة أبيه، ليهربَ من هاجسِ الوجود ومن شبحِ الرَّتابة.

لم أستطعْ تفسيرَ أيّ شيء..

ربَّما يختلِفُ الكُتَّاب بمادَّةِ مُخيّلتهم؛ فمُخيّلتي خاويةٌ لا تحوي إلَّا الفراغِ وكائناتٌ هلاميَّةٌ تُحاوِل السَّير بنصفِ رأس وقدمين لا يقويا على حملها حتَّى عتبة الباب.

كم هو محزنٌ الخواء.. كيف يحلم المُجوَّفون والمُتلاشون؟

هل لهم أن يحلموا بعالم أخفّ وطأةٍ على أرواحنا.

وما ذنبُ أحلامهم؟ ولماذا أصرُّ على التَّساؤل؟

كيركيغارد[3]، يا صديقي غير الآبه بالحلم، هل لك أن تكفَّ عن قرع أبوابي وأن تدعني أحلم؛ ولو قليلاً. فليسَ من العدلِ أن يُعيد المرءُ تاريخَ صَحبه ويُكرّره، لكنَّه لا يودُّ أن يسمع؛ فيصيح:

"يغرز واحدنا أصبعه في الوجود ليعرف من خلال رائحته في أيّ موقعٍ هو. أغرز إصبعي في الوجود لأكتشفَ أنَّ لا رائحةَ له. أين أنا؟ من أنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ ما هو الشَّيء الَّذي يُسمَّى العالم؟ من هو الَّذي ضللني إليه وتركني هنا؟ كيف بدأت أهتمُّ بهذه المُغامرة الكبرى الَّتي يُسمُّونها الواقع؟"[4]

لكنّي، وللمرَّة الأولى، لا آبه لكلامه وألوي برأسي خارج خيباته، مُصرّاً على أن أحلم؛ فأنا وُلِدت في الحرب الَّتي تركت ندوبها

---

[3] سورين كيركيغارد **Søren Kierkegaard** (1813-1855م) :فيلسوفٌ وجوديٌّ؛ ويعدُّ الأبَّ الرُّوحيَّ للمدرسة الوجوديَّة.

[4] كيركيغارد، سورين (2013م): "التّكرار- مغامرةٌ في علم النّفس التَّجريبيّ"، ترجمة مُجاهِد مُجاهِد، الطَّبعة الأولى، دار الكلمة للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة.

داخلَ جسدي لتُصبِح صديقتي الَّتي أعرفها جيَّداً... أغنّي لها آخر المساء... أَربُتُ لها على كتفها الأيسر، فننام سويةً في فراشي الممزُوجِ بالأفكار والصَّبوات ونستيقظ صباح اليوم التَّالي ونذهب لعملنا على وقع أصوات المدفعيّة.. آه يا صديقةَ الذَّاكرة.

هكذا هي ذاكرتي الحالمة: إمَّا بحرب، أو بوباء، أو بلاشيء.

لقد أختزلْتَنا أيَّها الزَّمنُ الجائر..

هل ليّ أن أنتمي إلى إنسانيَّة الإنسان أو شيطانيَّته؟

إنَّ البشرَ وحوشٌ كاسرةٌ، أحياناً، تقتلُ تعطشًّاً للدَّمّ وتلهو حُبَّاً بالعبثِ والدَّمار.. لكنَّ الحالمون والحالمات ينتظروننا هناك عند نهاية الطَّريق مُلوّحين لنا بدموعهم وقروحهم.. مُتسائِلين: هل لنا أن نحلم في عالم الموت؟

كم من فلسفاتٍ بقيت لتُعطينا مُسوّغاتٍ أُخرى للوجود؟ وكم من أفكارٍ كفيلةٍ بأن تُبقينا في منأىً عن هذا العالم، عن هذه المسرحيَّة الكبرى.. عن هذه الأضحوكة المُسمَّاة "عالم".

هل نحلم إذاً؟

البارحة زارني حلمٌ غريبٌ بحبيبٍ ممزوجٍ بالاحتواء، كان أشبهَ بالوهم؛ إلَّا أنَّي أضعته بين التَّساؤلات الَّتي تُثقِل رأسي باستمرار، فتلاشى بين ثنايا الواقع وتبعثر بين فجواته؛ فهل يُمكِن لي أن أجده من جديد؟ يبقى السُّؤال مفتوحاً .

وجودٌ خافتٌ من بعيد

لا مناص فكلُّ الاحتمالات تفضي إلى اللَّاشيء، في معادلةٍ غير عادلة على الإطلاق، تبعثر كياناتنا في الأفق ثمَّ ترميها كقشرةٍ جوفاء خاليةٍ من الشَّكلِ والمعنى لتتمسخ بواقعٍ واهنٍ وهلاميّ لا حِراك فيه.

هكذا أنا دائماً، أنتظر أيَّ شيءٍ جديد يلوّح ليّ من الأفق، أيَّة إيماءةٍ تقول لي: "اَنْزِلْ ثقل الماضي عن أكتافك، وسِرْ إلى الأمام علَّك تحتفي بحياةٍ أشبهَ بالحياة".

لم أعرف لغة الفوضى يوماً ولم اَئْتَلِفْها، بل كانت أصواتي الدَّاخليَّة تنخر جسدي بسكين مُسنَّنٍ ومُحدَّب الرَّأس، يفتكه على مهل ويغرس فيه شِفراته بهدوءٍ وسكينة، حتَّى جعلتني أتمرَّس الشَّيء في عالمٍ كُنهه هو اللَّاشيء، وأتمرَّس خداع النَّفس في محاولةٍ

لتعزيتها عبر صنع عوالمَ مفترضة تقينا من بؤس الوجود ورياح الكآبة الجافَّة الَّتي تحتشي القلب، وما زلتُ أمارس طقوس التَّشذيب والتَّلوين لكلّ البقع المُستعصية؛ أُلوّنها وأُجمّلها بألوانٍ برَّاقةٍ سريعة الذَّوبان لا تني تتسرَّب إلى مسامات الجلد لتفسّخها وتفتّتها كرمادٍ متناثرٍ في كلّ مكان.

لم يفارقك ثقل التَّظاهر الَّذي حملته على أكتافك لتؤكّد للعالم برمَّته أنَّك سعيد، وأنَّك تبتسم بوجهٍ بشوش، وتحسُّ بالآخر: "الآخر وجدليَّته (الألم–الحنان، الطَّعنات–التَّسامح، الخداع–الاحتواء) الَّتي تنخر أحشاءك وتخرق جوفك الرَّطب الَّذي لا يستطيع احتمال شدَّة الهلع، ولم يُعَدّ مُسبقاً لمواجهة الكدمات والنُّدوب".

تزورك الأفكار المعتادة: الجحيم هو نحن، الألم سيّد الموقف، الحياة تحتاج إلى الشَّكّ، مستنيريّ العالم يدفعون ضرائب باهضة، السَّراب، الصُّراخ، أصوات البؤساء، العالم القميء، الأوجه

المُقنَّعة، ألامنا المُضافة، القهر، المسامير المغروسة داخل الجسد، أثقال الماضي، انحطاط الفكر، جشع الإنسان، الفاه المفتوح للهواء؛ والَّذي يفتكُّ كلَّ شيءٍ دون اكتفاء، أوحال المدينة وطينها البنيّ.

تتوقّف في لحظةٍ ما ثمَّ ترمي كلَّ مفاهيمك وتبعثرها بشكلٍ غير مألوف. تترك حياة الانتظام خلف ظهرك، وتصفع وسواسك القهريَّ بيدّك اليُمنى لتُسكِتَه عنوةً، فتستغرب من قدرتك على القيام "باللّامفكَّر به" لتترك جسدك وأحشاءك يتماهون مع العالم بأسره، ولتسمع أصوتاً مُبعثَّرةً وُمشوَّشة، فتكتشف أنَّك خرجت من قوقعتك كسلحفاةٍ عجوز عادت إلى شبابها، وكأنَّ المعجزة هي واقعٌ مُعاش أو كأنَّ الآلهة قدّ أعطتها قدرةً جديدةً لتسير في طرقٍ طويلةٍ ومختزلة تُؤدّي إلى الخيبة والعزاء.

ثمَّة مساحاتٌ من اللّاوعي تغور في فضاءاتنا وتشتّت وجودنا الهانئ.

ثمَّة نزيفٌ لا يُمكن للأدب إيقافه أحياناً.

ثمَّة كلماتٌ لا تُقال دائماً، بل تبقى في قعر الرُّوح تاركةً وراءها قروحاً وندوباً لا يُسهل مداواتها على الإطلاق.

الغائبونَ الحاضرون

الأيَّام على حالها وزنزانتك، غرفتك، سرُّ الأسرار على حالها أيضاً، تُحاوِل أن تسير خطوة للأمام إلّا أنَّ الماءَ يمنعُ كيانك ويغسل روحك المُبهمَة والغارقة في اللّاشيء. قدمك الَّتي تُؤلِمك قليلاً وتتخرك في حركةٍ أشبه بالرَّنَّان، سيور حذائك الَّذي يبهت في محاولة مساوقةِ الوحدة الرَّماديَّة. تعود بك الذَّاكرة إلى الماضي كأنَّها بساطٌ سحريٌّ يحملك بسهولةٍ ويسرٍ إلى أيّ مكانٍ تريد.

"تفكيكُ الثَّوابت"؛ جملةٌ تقرع رأسك المُدبَّب فيستجيب لها وجهك الشَّائه بكلّ ما أوتي من وجوم هذا العالم. لا مكان لثوابتنا؛ فلنحطّمْ الصَّخرة الرَّاكدة في نهر هيروقليطس علّنا نُحسِن لمَّا تبقى من ماء الوجه. تجتاحك كلُّ التَّساؤلات الوجوديَّة من جديد: ما الحُبُّ؟ لماذا نُحِبُّ؟ أين أنتِ رابعة؟ وأين صوفيَّة ابن عربيّ الَّتي عاقرت كيانك زمناً طويلاً؟ كيف نستطيع أن نكون رثّين إلى هذه الدَّرجة؟

إنَّ هذا العالم أوسم من قباحتنا، وأسعد من بؤسنا، وأوسع من غُرفنا ومساحاتنا الضَّيّقة وعقولنا المُنكَبَّة على ذاتها. تزورك الجمل لتُلوّح لك بهدوءٍ شديدٍ كنسمةٍ هوائيَّةٍ باردةٍ في إحدى ليالي أيلول، شهرك المُفضَّل، بنغمةٍ هادئة: "ولقد أقول لمن تحرَّش بالهوى عرَّضت نفسك بالبلا فاستهدف". ثمَّ تسمع نغمةً أخرى مُختلِفة: "وما أبقيت ليّ من جسمي المُضنى، وقلبي المُدنَف فالوجد باقٍ، والوصالُ مُماطِلي، والصَّبر فانٍ، واللِّقاء مُسوّفي"، فتنصت لهذه النَّغمات مع تنهيدةٍ مُطوَّلة.

الحبُّ؛ مقولتك السّحريَّة الَّتي طالما اختبرتها إلَّا أنَّها –ككلّ مفاهيم هذا العالم– لم تكن صالحةً لكلّ الحالات الوجوديَّة المُعاشَة، ولم تتطابق مع كلّ المواقف الإنسانيَّة، بل كانت نسبيَّةً وميكرويَّةً في غابة الحياة المُرعِبة والمُفزِعة والمُمتلِئة بالهلع.

يقترب الوقت من تحقيق كلّ الأشياء، ويقترب الانعتاق من الجحيم؛ الآخر عند سارتر، ويسير بهدوءٍ ومراس. تقفُ للَّحظات

لتُكلّم نفسك، ولترمي السَّلام على سلامك الدَّاخليّ، ولتفتح يداك من نافذةٍ الشُّبَّاك وترمي عبره كلَّ الَّذين خدعوك وأحببتهم، وكلَّ من كانوا مُقنَّعين وسامحتهم، وكلَّ من كانوا ومازالوا يعيثون فساداً ونسمح لهم بالدُّخول إلى عوالمنا ومساحاتنا. تمدُّ بيدك لتلامس هواء العالم الخارجيّ وتتحسَّس هشاشة وجودنا.

تُحدّث "منار" فتُؤكّد لك أنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لاختبار حقيقة وجودنا في خضم هذا العبث الوجوديّ لكثرة ما صار وجودنا هشَّاً. فترمي لك بكتاباتها المُتنوّعة وتُحدّثك عن تفاصيل الحياة الَّتي لا تموت؛ تُمسِك مبضعها –وهي تنظر نظرتها الجامحة والمعتادة للحياة وللاستمرار– لتكشف السّتار عن كلّ الَّذين يرحلون دون أن يُدرى بهم، كما جاؤوا بهدوءٍ ودون أيّ إزعاج.

تعتمرك كلُّ ذكريات الماضي والحاضر، وتستعمِر الشَّخصيَّات والأحداث والأفكار والرُّؤى ذاكرتك الَّتي تفيض بما تحمل للدَّرجة

الَّتي أصبحت تتقيَّأ كلَّ ما فيها بابتسامةٍ هادئةٍ ودونَ أيَّة رغبةٍ بمتاع العالم البالِ.

في نهايةِ المطاف، تشدُّ وثاق قلبك بوعودك الَّتي سامرتها واخترتها في سرّك دون أن يدري بها أحد، واخترتها لتنهي بها نهارك الطَّويل ولتناجي كلَّ المُتطلّعين في هذا العالم لحلمٍ ما.

يومٌ مُختلِف ومكرور

إلى الوحدة؛ صديقةً رقيقةً وموجعة، ووِقاءً يحمينا من مكر هذا العالم وأنيابه، وستاراً عازلاً أمام طعنات الوجود بأسره.

تصحو وكأنَّك مُشبَعٌ بالنَّوم رغم أنَّك لم تنم جيّداً ليلة البارحة، ترفض الإذعان لضميرك العلميّ الَّذي ينخر أحشائك ويُملي عليك أوامر يوميَّةً اعتدتها على مدار السَّنوات السَّبع الماضيَّة حتَّى أصبحت الكآبة ملاذك المُطلَق، واللَّاأحد هي التَّسمية الوحيدة لعلاقاتك في حياةٍ جفَّت فيها كلُّ الصُّور، ومازلتَ تحاول تشذيبها بابتسامات تملأ العالم بأسره.

ترفض الانصياع لمَّا هو مكرور، وترفع صوتك عالياً مُصرَّاً على أن تعطي نفسك وقتاً أطول لترتاح وتقهقه بضحكٍ مفاجئٍ ومغايرٍ للسُّكون المُؤتلَف وللوحدة الجشعة الَّتي تُشبِه شبحاً أسودَ اللَّون،

ولتقرأ إحدى الكتابات القديمة الَّتي قرأتها لمرَّاتٍ عديدةٍ لتعود وتُبكيك بكلّ ما أوتيتَ من ضعفٍ وهشاشةٍ وصراحةٍ وإحساسٍ عميقٍ بألم هذا العالم المضني، وبلا جدواه، وباستحالته إلى العدم والعبث واللَّامعقول.

تُصِرُّ على أن تكتب شيئاً ما يُعبّر عن بكائك وأن تُردّد موسيقا غريبة الشَّكل والمضمون وغريبة المعنى، لتعود لحالة الجلوس السَّتاتيكيّ دون أيّ حراك، فتسمع دبيب كلّ من يسير حولك دون أن تُحرّكَ ساكناً.

يسير الزَّمن هنا ببطءٍ؛ فلا تكاد السَّاعة تتحرَّك في وقتٍ تحسُّه يُطبِق على أنفاسك في كلّ لحظةٍ، وتعود لكَ تساؤلاتُكَ الدَّائمة عن الآخر وأهمّيَّة وجوده واستحالة كلّ شيء دونه، لكنَّ ألاف الجمل تتبعثَّر في رأسك؛ مقولةُ مُدرّس الفلسفة بأنَّ المرء يستطيع اعتياد كلّ شيء، وعبارة هيدغر بأنَّ الآخرين لن يستطيعوا إنقاذنا من الموت أو العدم؛ فلنتوقّف عن العيش من أجلهم، وتعود لتلوي

برأسكَ خارجِ كلّ المقولات الفلسفيَّة لتُصدَم بواقعٍ يُحاصِرك من كلّ حدبٍ وصوب، فتعجز عن قراءته وتبدأ بإلقاء الكلامِ على عواهنه لتصرخ وتبكي حينها وتحسُّ بذاتك المُخمّرة في الفرن أكثر ولتواجه أكبر مخاوفك، فتعيد اجترار الألم كأنَّه طبق طعامك المُفضَّل إلَّا أنَّك ترفع طرف عينك لتنظر إلى ساعة الجدار الجاثمة كالجثَّة الهامدة لتلمح أنَّ الوقت ما زال يمرُّ ببطءٍ رغم كلّ الأفكار، وكلّ الصَّراخ، وكلّ العدم المحيط بك.

تحاول أن تسير علك تُهدّأ عن نفسك قليلاً، فتتذكَّر خضرة وأبو العزّ ثمَّ ترى باسل وبديع أفندي ماثلين أمامك، لتهرع وتُمسِك بكتابٍ ما فتقرأ في مقدّمته "غمرته غمامات الصَّنوبر في مرتفعات العارضة الجبليَّة بعبير ذكره بما ينتظره وراء الجسر. صنوبر جرزيم. صنوبر الطُّور، صنوبر رام الله"[5] لتقف بلا حراك، وتغلق الكتاب، ثمَّ تُصرُّ على عدم المجازفة والسَّير، فهذا الكتاب كنتَ

[5] العبارة مأخوذة من رواية "الصَّبار" للرّوائيَّة الفلسطينيَّة سحر خليفة (1941-اليوم).

قد قرأته منذ ثلاث سنواتٍ بنهمٍ لتكتشفَ فيه آهات الحزن ولتذوبَ بين ثنايا الألم القابع في جوفه.

تحاول أن تأخذ نظرةً إلى ساعة الحائط من جديد، لكنَّك لا تكترث للوقت الَّذي يمشي ببطء ويدهس جسدك الطَّريَّ كأنَّه قطارٌ بخاريٌّ قديمٌ يحملُ ذكريات كلّ من مرَّوا به وكلّ من بعثَّروا الكلام بين ثناياه لتختالَ صورُ الرُّكابِ والمارَّةِ ذاكرتَكَ، فتنسى ألم الوقت، إلَّا أنَّك تبتسم في اللَّحظة الأخيرة لاكتشافك حقيقةَ أنَّه لا أهمّيَّة للوقت في زنزانتك، في غرفتك ومكان جلوسك المُعتاد، فتبتسم ابتسامةً خفيفةً جدَّاً لتؤكّد أنَّ لا شيءَ قدّ تغيَّر؛ فالزّنزانة على حالها، ومكانك على حاله، والعالم الخارجيُّ مازال ساكناً بلا حراك، وبلا وجه، وبلا حياة.. لتعود إلى مكانك وتحمل العالم برمَّته وتجعله يدور في رأسك الَّذي أصبح ساكناً أيضاً وبلا وجه وبلا حياة.

ساعةٌ واحدة من الألم والوحشة

ألم الواقع من حولك، ألمك الَّذي يدوي في الأفق، وساوسك الرَّيبيَّة الَّتي لا تفارق كياناتك الهشَّة، التَّساؤلات الدَّائمة الَّتي لا تفارقك، مخاوفك الضَّحلة، مخاضات طريقك، خضخضات مسارك المترنّحة الَّتي تجعلك تتلوَّى كعادتك، الأوهام، الشَّكّ؛ سلاحك الدّيكارتيُّ الَّذي تمدُّه إلى الأفق برمَّته مُصرَّاً على ألَّا تهادن.

لماذا الآخر؟ ولماذا نجتَّر مقولة أنَّنا اجتماعيّون؟

مجدَّداً ترفض أن تتراجع عن استحضار سارتر في كلّ لحظة، وكأنَّه قد عرف سرَّاً لا مناص منه "الآخر هو الجحيم"، ثمَّ تمدُّ الشَّكَّ الهوسيَّ لكلّ شيء دون مواربة.

أذكر حينها عندما كنت في المدرسة الثَّانويَّة، وأنا أجلس في المقعد الأخير من جهة اليمين بجانب نافذة غرفة الصَّفّ، عندها سألنا مُدرّس الفلسفة عمَّا إذا كنَّا نستطيع العيش دون الآخر،

ليجتَّر لنا ما قيل منذ زمن إنَّنا اجتماعيّون بكلّ ما أوتينا من بلاهة العالم، إلَّا أنَّني أصرَّيتُ على مخالفته والإقرار بأنَّه بإمكاني العيش دون الآخر في محاولةٍ لإفراغ رغبتي العائمة في التَّعبير عن وحدتي الَّتي كانت تنخرُّ جسدي بهدوء حتَّى كان نُحلي الشَّديد خيرُ دليلٍ على هذه الوحدة.

لا تُقاس التَّجارب الإنسانيَّة بالوقت القصير (شكراً ماوتسي تونغ)! ما زلتُ لا أُجيد تقييم تجربتي حتَّى الآن، هل صنعتْ مني شكلاً هلاميَّاً يستحِقُّ أن يُذكر؛ ولو قليلاً أم حطَّمتني كرمادٍ متناثرٍ بكلّ مكان؟

لماذا لا تكفُّ الوساوس عني؟ لماذا نحتاج كلَّ هذا الطَّريق الوعر وهذا الألم المُضني لكي نتحوَّل؟

أعود كلَّ يومٍ إلى زنزانتي، غرفتي، سرُّ الأسرار؛ حاملاً معي ألم الوجود بأسره لأتحذلق به وأُبعثره بين ثنايا الجدران، ورائحة البخور

والمسك تحيط بأنفي الَّذي كان مدعاةً للسُّخريَّة من أقراني، حين كنَّا بلهاء ويافعين، إلى أن أصبحَ استعارةً عن القوَّة والمنعة عند والدي الخامد في اللَّامكان واللَّازمان... من الصَّعب أن نكتب عن عيوبنا عادةً!

إنَّنا نستحقُّ الحياة، وجديرون بأنَّ نترع سمومها وآلامها وأحقادها وأشباحها، وجديرون بأن نُجيب عن ترهاتها بأجوبةٍ غريبةِ الشَّكل والمعنى..

نتذوَّق طعم مرارة العيش دونَ وجودِ من أحببناهم، ونُصِرُّ على التَّحدّي والاستمرار رغم وعورة الطَّريق.

تجلس مجدَّداً في مكانٍ عائمٍ في اللَّاوجود دون أن تكترث لكلّ من يسير في شوارع المدينة المُلوَّنة والمُشعَّة بالأضواء البرتقاليَّة والَّتي تحمل في ثناياها رعباً وهلعاً لا مجال لتفاديه.

تُعِدُّ لك الحياة وصفاتها السَّحريَّة من كلّ شيء، وتمشي في شوارعها ممتلكاً ذاكرةَ عجوزٍ مُلتهبةٍ لعلَّ مُجمَلُ ما تحمله هو بقايا صورٍ وأغنيات.

تسير في شوارعَ خاويةٍ من كلّ شيء؛ من الحافلات، وصوت مفاتيح منزلك، وهاتفك المحمول، وأبواب منزلك، وصوت أنين المروحةِ الصَّيفيَّة في لحظات الظَّهيرة الهادئة والفارغة من الألم والصَّوت والكلام، ودفتر الملاحظات الفارغ الَّذي لم تكتب فيه أيَّ شيء، ووجهك الهلاميّ الَّذي لا يحمل أيَّ شكلٍ متعيّن.

لكنّك في لحظةِ وعيٍ ما تسمع صوت فيروز الَّتي تقول: "يا عُود.. يا عُود، يا رفيق السَّهر يا عُود، نبكي على المفرق، وتتوجَّع، وتروح آخر دنيّ وترجع.. تكتب وتمحي حدود يا عُود". إلى أنَّها لم تُطرِبك بقدر ما غرست سكاكين الألم في داخل جلدك حتَّى قطَّعت أوصالك بكلّ نعومةٍ... فكانت استكمالاً لكلّ شيءٍ مضى، ولكلّ حالاتك اللَّامفهومة حتَّى الآن!

نحن نحتاج لأن نختبر ألمنا دائماً، ولأن نتجرَّع السُّمَّ الوجوديَّ الَّذي نعيشه في محاولةٍ لتقدير قيمة الابتسامة بعد مرارة كلّ شيء، ومجبرون على أن نتجشَّم عناء السَّير في طرقٍ مجهولة الاسم والمعالم ومجهولة النّهايات وحدنا؛ دون أيّ أحد.

في مدحِ–ذمّ اللّاشعور

لماذا الألم؟

ولِمَ لا يُستعاضُ عنه بالفرحِ؟

ولماذا هذه الثُّنائيَّات المُغلَقة (ألم–فرح)؟

أنستطيعُ فهمَ اللّاشعورِ حقاً؟

ربَّما هو حذقٌ، وحقيقيٌّ، ولا يَعتريه الزَّيف.

اللّاشعور؛ عبارةٌ توحي باللّاشيء للوهلةِ الأولى.. تُوحي بالفراغ، بالنَّفي، بالدُّونيَّة إلَّا أنَّها تحوي كلَّ شيء.. يَعرِفُنا جيّداً دونَ حاجةٍ إلى المواربة.. يَختَزِنُ حقائقَنا بلا أغلفةٍ أو أقنعةٍ أو مساحيقَ تجميلٍ وجوديَّةٍ نلجأُ إليها لنُشذّبَ عُقدنا، ونُخفيها، ونُجمّلها عبر أغطيةٍ واقيةٍ تقينا من حقائقَ أُخرى مُعاكِسة أمامها.

نعم، إنَّهُ اللَّاشعورُ الَّذي بفضلهِ نُغطِّي أنفسنا، ونُحجّبُ ماهيتَنا، ونُخبّئُ كينونتَنا.. نطوي حقائقَنا ونُصِرُّها داخلاً ونُمضي قُدماً.

نُحِبُّ أن نُصرّحَ بكلّ ما يَختلِجُ كوامنَنا إلّا أنَّنا عاجزونَ وضعفاء أمامَ وحشيَّةِ العرف:

العرفُ يَبلعُنا.

العرفُ يَفضحُنا.

العرفُ يُعرّينا.

العرفُ يُدمينا.

العرفُ يُكبّلُنا ويَكوينا.

لا عالمَ يَحوي حُبَّنا ولهيبَ مشاعرِنا، ولا نِطاقَ يُحيط بهما، ولا مساحاتٍ تَشملهما. هنا، يُقصَى كُلُّ من هو شفَّافٌ، واضحٌ، جليٌّ

كالزُّجاجِ الهادئِ والسَّاكن، ويُضَمُّ كُلُّ من يتلوَّنُ كحرباءٍ بريَّةٍ تُجيدُ التَّواريَ والظُّهورَ أمامَ الآخرِ-المُفترِس.

أُنبّشُ عن نفسيَ في أعماقِ لاشعوريَ وفي أرجاءِ نصوصٍ نثريَّةٍ وكتابيَّة مُختلِفة، لأتوارى بين السُّطور، وأُخبّئ حقائقي، وأطمُرها بشكلٍ مُبعثَّرٍ كي لا اتعرَّى أمامَ النَّصّ، فأفقدَ صبغتي وسحنتي ووجهيَ المُتبرّمِ إزاءَ الوجودِ برُمَّته.

إلَّا أنَّني فيما بعد أُرمّزُ الأشياء، أُقلّبُ الأسماء، أُلقّبُ من أريد، أُبعثِرُ المفاهيم، أرمي بها في الأرجاء، أُغيّرُ الأنساب، أُبدّلُ الأحداث، أَقلِبُ الأشخاص، أُعلّي من أشاء، أُميته، أَدفنُه إن أردت، ثُمَّ أَضمرُ نفسي، أَطمسُها، أَكتمُها، أُغمّدُها، أَكمّها، وأَلويها في إحدى الحُجراتِ اللَّامرئيَّة، لأَتوارى عن حقيقتي وأُخبّئها بين السُّطور.

حَملتُ على نفسيَ ألَّا أكتبَ لأحدٍ عابر، إلَّا أنَّ طاقةَ الكتابةِ تَجُذبُني وتَدفعُني، فاستكينُ إليها تاركاً نفسيَ تسيرُ كما يأخذُها الدَّربُ كريشةِ حمامٍ في شهرٍ خريفيّ تطيرُ أينما يأخذُها الرّيح.

بيننا مسافةُ مترٍ واحدٍ مُربَّع، لكنَّ المقاسَ يتسعُّ أكثر ليخترقَ فجواتيَ الوجوديَّةَ ويُدخِلَني في دوامةِ الخوفِ وجدرانِ المتاهاتِ الَّتي عاقرتْ كياني منذُ الصّغر. بينا مسافةُ مترٍ واحدٍ مُربَّع إلَّا أنَّ للَّاشعورِ حكمتُه أحياناً!.

الاقترابُ الأوَّل

ترتَّدُ الأوحالُ عن المدينةِ العابثة، تتقلَّصُ المسافاتُ في عرباتِ النَّقل، يتحرَّكُ المِبضَعُ السُّوسيولوجيُّ الَّذي يأبى أن يُوافِقَ الوضعيّينَ بأنَّ الذَّاتيَّةَ هي عدوَّةُ العلم، ويحتضنُ هابرمان؛ فالمُجتمَعُ مُنتَجٌ بشريٌّ مُعاش، وموضوعيَّتنا هي ضربٌ من ضروبِ الاستحالةِ المنهجيَّة.

يختلطُ العامُّ بالخاصّ في حنايا حافلاتِ النَّقلِ العامَّة، تَخرُجُ من جلدِكَ وتتذمَّرُ باستمرارٍ مع وجهِكَ المُتجهّمِ إزاءَ كلّ الأشياء. تبدأُ التَّحليلات: العامُّ لا ينفصلُ عن الخاصّ، الثَّقافةُ الفرعيَّةُ عند ميرتون والثَّقافةُ الأمّ، لا انفصالَ بين الفِكرِ والواقع؛ بين القضيَّةِ الجزئيَّةِ والكلّيَّة. تُبعثِرُ أفكارَكَ في حافلاتِ النَّقلِ اليوميَّة وترفضُ

الإذعانَ لصوتِ العقلِ عِبرَ مُحاوَلاتِ التَّنصُّلِ منه والولوجِ للأحاسيس.

تشيطنُ الأشياء، تغضبُ داخلك، تُدمّرُ العالمَ من خلالِ أفكارِكَ ثُمَّ تُعيدُ بناءَهُ من جديد أو بشكلٍ أدقّ تتركُهُ كما هو؛ لأنّكَ لا تملِكُ القدرةَ على التَّغيير، وتعودُ لحلقتِكَ المعيبة الَّتي لا سلاحَ فيها إلَّا المُحاباة، المُغالاة في جلدِ الذَّات، التَّفكير بالآخرِ وأحاسيسِهِ كأنَّكَ هواءٌ رطبٌ هادئٌ يُنعِشُ أجسادَ كلّ من مرُّوا بشكلٍ تطوُّعيّ.

تُفكّرُ بكتابةِ كلّ الأفكارِ الَّتي تجتاحُ خواطرَكَ لكنَّ معظمَ الأفكارِ تتوهُ مِنكَ وتتسرَّبُ كمياهِ الأنهار. تُزعِجُكَ أقفاصُكَ الَّتي تُكبّلُ ساعديكَ وكينونتَك، وتعترفُ أنَّهُ لا مناصَ من كلِّ ذلك؛ فالحُبُّ وحدَهُ يستطيعُ أن يُنسيكَ مُعادَلةَ الخاصّ والعامّ، ومُعادَلةَ الوجودِ الفارغِ من المعنى، وعدميَّةَ كلّ ما يُحيطُ بِك.

المكانُ نفسُه، الزَّمانُ قرابةُ كلّ زمانٍ شبيهٍ بذلك، نهارٌ شاقٌّ ومُرهَق، أحاسيسُكَ الَّتي تقولُ لَك: نعم! ثُمَّ يَتبَعُ هذه المُوافَقة صمتٌ يدوي بالمكانِ وبالزَّمان في آنٍ معاً. لونٌ رماديٌّ من بعيد يُغيّرُ كيانَك، يقلبُ الموازينَ والأضواءَ والأحداث، يجعلُ مفاهيمَ العامّ والخاصّ والوجودَ العدميَّ تتبخَّرُ في أرجاءِ الهواء وتتلاشى بشكلٍ مُفاجِئ، فلا يُنصِتُ قلبُكَ جرَّاءَ هذا اللَّونِ إلَّا لراحةِ وسكينةِ الشَّارع، ولأهمّيَّةِ الحدث.

تَضيقُ العبارةُ وتتَّسعُ الرُّؤية، يَعتمِرُ السُّكونُ والزُّهدُ والتَّنسُّكُ كينونتَكَ، يَتراءى لكَ الوجودُ بحُلَّةٍ مُلوَّنة، فتمشي في شوارعِ المدينةِ الَّتي حملتْ طفولتَكَ وصباك، وكأنَّ القدرَ قدَّ قدَّمَ لكَ هِبةً ما على شكلِ لا شيء، إلَّا أنَّهُ أسعدَكَ بشكلٍ مُفرِط.

"العيشُ في الوهمِ أسهلُ أحياناً من العيشِ الواقعيّ، وأقلُّ ضرر".

تتردَّدُ على مسامعِكَ نغماتٌ جديدة:

Paris, Paris, Paris"

C'est sur la terre un coin de paradis.

Paris, Paris, Paris

De mes amours c'est lui le favori".[6]

ينتهي النَّهارُ بابتسامةٍ خَفيفةٍ وغبطةٍ في القلب، فتُسامِرُ أحلامَكَ آملاً بمترٍ مربَّعٍ آخر من الألفةِ والاحتواء.

---

[6] الأغنية للمغنّية الأمريكيَّة جوزفين بيكر **Josephine Baker**، بعنوان: "باريس، باريس، **Paris, paris**".

المجهول

صوتُ عويلِكَ في لحظةِ الفراغ يأتي صامتاً ككينونتِكَ الرَّثَّة الَّتي تصرخُ صراخاً يملأُ العالمَ إلَّا أنَّه صراخٌ صامتٌ لا يُصدِرُ أيَّ أصواتٍ تُذكَر، إنَّما يدوي مُصعَّداً لعوالمَ داخليَّةٍ تجترُّ فيها كلَّ هذا العالمِ ثُمَّ تُعيد بصقَهُ بشكلٍ دراماتيكاليّ على هيئةِ كائنٍ هلاميّ غيرِ مُتعيَّن .

صوتُ قرقعةِ كلّ من حولِكَ يجتاحُ عوالمكَ مُتهكّماً منكَ ورافعاً أصابعَهُ المُجعَّدةَ أمامَكَ: أحمقٌ، أرعنٌ، أهوكٌ، مأفون.. كم أنتَ ضعيفٌ في خِضَمِ الحياةِ وبراغماتيَّتها الخشنة! وأنتَ تسير مُصِرّاً على ألَّا تُهادِنَ في موقفٍ لا هوادةَ بهِ من عالمٍ يساوي العدم .

تسامحٌ ما ينثرُ عبيرَهُ بأجسادِ طفلين متشاجرين في شوارعِ المدينة..

أيُّ طرقٍ سوداويَّةٍ هي طرقنا؟

ألقابٌ.. مفاهيمٌ.. اعتمارٌ في بنى ذهنيَّةٍ مُتعطشّةٍ لشيءٍ ما لا تعرفُهُ.

فجأةً تأتي الأشياء الَّتي تمنَّيتَها في سرّكَ، إلَّا أنَّكَ نسيتَ أمنياتِكَ في لحظةِ انسيابِ المعارفِ من ذاكرةٍ عجوز دكَّ التَّلفُ مضاجعَها فأهلكها.

صوتُكَ يعلو في شارعٍ اعتادَ صمتَكَ وخفّتَك المؤتَلَفين.. انتصارٌ ما عمَّ الأحياءَ المظلمةَ والدَّاكنة، ولم تَسلَم منه الأزقَّةُ الكالحة، وشوارعُ الأشجارِ الَّتي سامرتْكَ آلامَكَ وأوجاعَكَ، وشاركتْكَ أفكارَكَ وقصائدَك.

مفاعيلُ مفاهيمِكَ تَفوقُ كلَّ الاعتبارات.. لله دُرُّكَ من عارفٍ!

تعودُ أدراجَكَ مبتسماً وغيرَ آبهٍ لعوالمَ قديمةٍ اعتمرتْ كيانَكَ الإنسانيَّ البسيط، مُنتصِراً على أشدّ هواجسِكَ اللَّعينة والقميئة.

في مساءٍ غير باردٍ هنالكَ من يستحقُّ أنْ يُكتبَ عنهُ إلَّا أنَّهُ دخلَ عنوةً في ذاكرةِ النِّسيان.. تراهُ سائراً مختالاً في شوارعِ الأشجارِ ذاتِها، مغنّياً بكلّ سعادةٍ لكلّ مُهمَّشي هذا العالمِ الجائر.

المسخ يسير يوميَّاً ويترنَّح

"بحلم وبظل شهر بالي مشغول

يطلعلي قول شعر، وما بعرف قول.

بتذكَّر مرَّة سهرنا بخيمة، وبهاك السَّهرة وشوشتك كلمة."

ثلاثُ جملٍ بسيطةٌ لا تكلُّفَ بها تكتبُها بعدَ مرورِ ما يقارب سبعةَ أشهرٍ من سنةٍ تمرُّ دونَ أن ترى فيها أيَّ أحد، ودونَ أن يشتعلَ قلبكَ أو ينشغلَ بأيّ شيء؛ فالحياةُ لم تعدْ تعطيكَ الفرصَ لتُحبَّ أو تكره، ولم يعدْ بالُكَ مشغولٌ بالآخر، فكلُّ ما تفعلُهُ هو أنَّك تتسابَقُ مع الوقتِ في مُحاوَلةِ ركلِ الكرة.. في مُحاوَلةِ الاستمرار من أجلِ الطَّعام والبقاء.

تركلُ الكرة وتعودُ لتلطمَ وجهَكَ الشَّاحبَ جرَّاءَ كلّ شيء، ثمَّ تُحاوِلُ أن تضعَ أسباباً أخرى للاستمرار.

تفكّرُ بالمستقبل، ثمَّ تتيقَّنُ أنَّ ما تملكُهُ هو الحاضر وضبابٌ أسودُ اللَّون يعتمرُ مستقبلَكَ.. تسقطُ أحلامُكَ ثمَّ تُحاوِلُ لملمَتِها من جديد والمُجامعة بينها، لكنْ من سوءِ حظّكَ أنَّك لا تستطيعُ العثورَ على كلّ الأجزاءِ المفقودة فتبكي كأيزيس الَّتي تبحثُ عن أشلاءِ زوجها أوزيريس، وتُحاوِل تجميعها من جديد.

يسقطُ الوقت، ويسقطُ الحاضر، وتسقطُ أنت ثُمَّ تَرتطِمُ وتسمعُ صوتَ عظامِكَ الَّتي تُسحَقُ على البلاط وتُطحَن، لكنَّك بحاجةٍ إلى الوقوف من جديد لتسيرَ بجسدٍ مُحطَّمٍ ومُتخلخِلٍ لتُكمِلَ المسير إلى المُتنفَس الأخير.

تستيقظُ في كلّ أيَّامِكَ وتحملُ "كافكا" بين ذراعيكَ وتحسُّ بالتَّماهي مع سامسا؛ أنتَ سامسا وهو أنت، أنتَ حشرتُهُ المقزّزة وهو

حشرتُكَ القذرة.. "أنتما مُجرَّد نطفةٍ رعناء من ريحِ سموم".[7]

لا قيمةَ لك ولا قيمةَ له، تتشابهان فتحضنان بعضكما بعضاً، وكأنَّكما على موعدٍ منتظر.. تسمّي نفسِكَ سامسا المسخ وتشعرُ يوميَّاً بعدميَّتِكَ القاتمة ولا جدواك.

نعم، أنتَ الحشرة الصَّغيرة الَّتي تُكنَّسُ وتُرمَى.. الحشرةُ الَّتي تمصُّها العائلة وتتقيَّأها متى تشاءُ وكيفما تشاء..

المسخ والأسرة.. قداسةُ الأسرة.. وهمُ القداسة.. قذارة الوصاية... وماذا بعد؟

هل هنالِكَ أسبابٌ أخرى للسَّير قُدماً؟

---

[7] العبارة للشَّاعر المصريّ صلاح عبد الصَّبور.

تُسمّي نفسَكَ المسخ وتحضُنُ المدينة، وشارعَكَ المُهترِئ، وألوانَ شارعِكَ الباردة والجافَّة.. فتتذكَّرُ التَّنوَّعَ الفنّيَّ، الاختلافَ، الإبداعَ، الفنَّ والإبداع...

آمان لبلاهةِ الوجود؛ لتجميلِهِ لكَ ولواقعِكَ.. أنتَ المسخ، وهذا هو كلُّ شيء، لا مناصَ لك من التَّرنُّح.

في حضرة الفرح

إلى كلّ من يطلُّ في طريقنا من جديد

إلى كلّ شيءٍ يستمرُّ ولا يتوقَّف

إلى الواقع الأفضل؛ والَّذي لا مناص من التَّطلُّع إليه.

يستيقظ صباحاً في يومٍ خريفيّ مُنعِشٍ مُشبَعاً بالنَّوم مُتحسّساً جسده المُمتلِئ بهواءِ أيلول الَّذي يُثقِل جسده ويُشعِره بالحاجة للمزيد من النَّوم، يفركُ عينيه اللَّتين شبعتا من ضجيج العالم الخارجيّ، يستقبل نهاره بابتسامةٍ تُخبّئ في ثناياها فرحاً مُبطَّناً يصعُب التَّعبير عنه جرَّاء ثقل التَّقاليد والأعراف.. يُعاوِد التَّقلُّب في فرشته المريحة مُتأمّلاً بعينيه اللَّامعتين مُحتويات الغرفة من

حوله ومُوزّعاً ابتساماته في أرجائها.. يستيقظ ليرى جارته أُمَّ مازن المُكمَّمة ككلّ نساء الحيّ والَّتي تتكلَّم بطريقةٍ يتخلَّلها المرح والقيود في آنٍ معاً. تُلقِي بسهام نكاتها الَّتي تُداعِب القلب وتدخُله دون استئذان ثمَّ تعاود الرُّكون جيّداً لتُعدّل من جلستها وانتمائها فتعود لتدخل في جوف المجتمع وعاداته ولتُحنّط حسَّ دعابتها وتخفيه خوفاً من كلّ شيء، لتتكلَّم فيما بعد عن التَّقاليد والأعراف، فيقبلها حمدي بكلّ صدرٍ رحب دون أن يكيلها بالأحكام، فهو باستطاعته تقدير ثقل الواقع وقوَّة أعرافه ومدى تأثيره على عقول العامَّة، فمن يخرج عنه يُنبَذ ويُوصَم ويُستحقَر ويُنفَى عن المجموع.. آمان لهذا المجموع المُضحِك الذي يكبّل نفسه بالقيود من كلّ حدبٍ وصوب.

يبتسم حمدي لكلّ ما يُحيط به ويُساوِم جارته على عبارتها الَّتي يقبلها والَّتي لا يقبلها على حدّ سواء، ويُسايِرها؛ فالمسايرة هي أحياناً ضربٌ من ضروب الانسحاب من الأعراف عند حمدي أو

وسيلةٌ لإغلاق جميع الموضوعات الَّتي لا يرغب بمناقشتها إطلاقاً، خصوصاً حين يشعر بالسَّعادة، حيث إنَّه لا يسمح لأيّ شيءٍ أن يُعكّر صفو سعادته. يستحم بصابونة الغارّ الخضراء ذات اللَّون اللَّامع والمُميَّز وذات الرَّائحة الفذَّة، ويدعُّ جسده عرضةً للمياه الَّتي تملأ أعضاءه وتُبلّلها، وهو ما يزال مُبتسِماً دون أيَّة مُحاوَلات للتَّفكير أو التَّفسير أو التَّحليل؛ فحمدي هو ذلك الشَّابُّ الَّذي لا يني ينكب على المعرفة منذ أوَّل صباحه إلى نهاية اليوم مُحاوِلاً مسابقة الزَّمن، فيُردّد يوميَّاً: "لا بارك الله في يومٍ أشرقت فيه الشَّمس ولم أزدد به علماً"، وهو أيضاً ممَّن تجذبهم تلك الكتب الممنوعة الَّتي لا تتحدَّث إلَّا عن الدّين والجنس وعن التَّناقضات الاجتماعيَّة الفادحة الَّتي تجعل من الحياة مزيجاً من الشّيزوفرينيا المُعاشة والمقبولة لدى الجميع.

يسير حمدي يوميَّاً عند المساء ويسترق السَّمع للمارَّة وقصصهم وحكاياتهم اليوميَّة في المحلَّات التّجاريَّة والأسواق وباصات النَّقل

العامَّة، ليبدأ بالتَّحليل والتَّفسير مُستغرِباً من شدَّة تشابه النَّاس من حوله؛ فهم أشبه بنسخٍ لا مجال للتَّمييز بينها، فيتذكَّر وهو يستحم تحت الدُّشّ قول جورج أورويل: "إلى المستقبل أو الماضي، إلى الزَّمن الَّذي يكون الفكر فيه حرَّاً طليقاً، إلى زمن يختلف فيه الأشخاص عن بعضهم البعض ولا يعيش كلٌّ منهم في عزلة عن الآخر، إلى زمن تظلُّ الحقيقة فيه قائمة ولا يُمكن لأحد أن يمحو ما ينتجه الآخرون"[8] حتَّى تُثار حفيظته، ويتوقَّف عن التَّفكير؛ فهو لم يشعر بالسَّعادة منذ زمنٍ طويل؛ كون أسئلة الواقع والتَّحليل المُستمِرّ له لا تتوقَّف عن نقر رأسه في كلّ أوقاته، فيُحاوِل تجنُّبها في محاولةٍ لأخذ استراحةٍ ما. فيعود للتَّبسُّم من جديد ويُبعِد جورج أوريل جانباً، يضعه على الرَّفّ مع مُستحضَرات الاستحمام ويترك جسده يستمتع بعذوبة الماء وهواء أيلول الخريفيّ.

---

[8] أورويل، جورج (2013م): "1984م"، ترجمة أنور الشَّاميّ، الطَّبعة الثَّالثة، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، المغرب، ص 35.

يجلس في يومٍ من أيَّام عطلة العمل مُسترخياً ومُستمتِعاً بأغنيات فيروز الصَّباحيَّة الَّتي لا مجال لاستمرار نهاره دونها، فتبدأ فيروز بالتَّغريد من شاشة الحاسوب ومن عالمٍ رقميّ لا مجال فيه لانتظارِ شيء ما، فكلُّ ما يخطر ببالك يُمكنِك الحصول عليه بأسرع وقت، فيترك أذنه تسترخي مع فيروز الَّتي تشيع مناخاً ممتلئاً بالألفة في غرفة الجلوس لتردّد: "يسعد صباحك يا حلو.. بيتي بورد بجمّلو.. لما النَّسيم بزورنا عنك يا ولفي منسألو". فتتَّسع الابتسامة أكثر ويتنهَّد قلبه من جديد وتمتلئ رئتيه بهواءٍ باردٍ لا مجال لتحاشيه، فيترنَّح جسده من شدَّة الموقف.

تُرى هل يُمكِن لحمدي المُتشائِم باستمرار أن يبتسم ويتأمَّل لهذه الدَّرجة؟ يتبادر هذا السُّؤال لذهنه، لكنَّه يتحاشى الإجابة عنه خوفاً من العودة إلى تساؤلات الواقع ومُحاوَلة تفسير تناقضاته ولاعقلانيَّته الَّتي تفضي بحمدي دائماً إلى الحزن والاغتراب

والعجز والسُّبَاب دون جدوى أو دون أيَّة مُحاوَلة من مُحاوَلات التَّغيير المُمكِنة ودون وجود أيّ ضوءٍ يُلوّح في الأفق.

يمشي حمدي في شوارعِ المدينة الَّتي اعتادته واعتادها، والَّتي ائِتَلف أُناسها البسطاء وكرهوه وأكالوه بالنَّظرات الحاقدة لافتراضهم أنَّه ينتمي لطبقة أخرى غير طبقتهم المسحوقة؛ عِلماً أنَّ حاله لم تكن أحسن من حالهم إلَّا بقليل جدَّاً. ينظر حوله ويتذكَّر هارولد جارفينكل وأثنوميتودولوجيَّته الَّتي لا تني ترافقه في مسيرته اليوميَّة... يستمع لأصوات النَّاس من حوله من جديد، ويرى النُّسخ اليوميَّة الَّتي تتحدَّث بالمنطق عينه وبالمصطلحات ذاتها إلَّا أنَّه وللمرَّة الأولى لا يكترث لأيّ شيء ويبتسم لهم وينظر للسَّماء، فيراها تشاركه ابتساماته بعذوبتها وصفائها غير المعهود بعد الحرّ الصَّيفيّ الَّذي أنهكه وفتَّت وجوده برمَّته.. يُعاود السَّير وحيداً فيُسلّي نفسه بالتَّسوُّق تاركاً جسده عرضةً للاحتمالات والأيَّام والمفاهيم الَّتي لا يُمكِن الهرب منها.

هل حقاً هو الخريف كريمٌ إلى هذا الحدّ؟! يتعجَّب من تساؤلاته الَّتي تنمُّ عن السَّعادة فينكبُّ في غرفته يقرأ كتاباً ويسمع موسيقا تعجُّ بالفرح؛ فطاقةُ الفرح الخاصَّة به كفيلةٌ بتُحويل أشدَّ أصناف الموسيقا الحزينة لسيمفونيات تعجُّ بالسَّعادة...

يُمسك قلمه ويُحاوِل أن يكتب في حضرة الفرح وحضرة المعنى فيراوده تساؤلٌ لا مفرَّ منه: ألا يَكمُن كُنْهُ هذه الحياة الخالية من المعنى في محاولاتنا المُستمِرَّة لإضفاء المعاني عليها من أجل الاستمرار؟ فيصمُت قليلاً ويترك كلَّ شيءٍ وراءه ويتنصَّل من دهاليز الأسئلة الوجوديَّة ويُردِّد في سرِّه: "سأغنّي سأغنّي سأغنّي للفرح... لأنَّ العاصفة وعدتني بنبيذ وبأنخابٍ جديدة وبأقواس قزح".[9]

[9] الأغنية للفنَّان اللُّبنانيِّ مارسيل خليفة.

أصوات صارخة وغير مسموعة

إلى الإنسانيَّة الطَّازجة والمغمّسة بالنُّور.

إلى اليوم الَّذي يغدو به الحلم حقيقة.

إلى الحبّ والضَّوء والسَّاقية الَّتي تسكب ماءً سلسبيلاً يغسل أرواحنا ونفوسنا باستمرار.

في واقعٍ رقميّ لا مكان فيه لمتعة ثقافة ماركيوز[10] ثنائيَّة البعد، يستيقظ حمدي ليفتح هاتفه المحمول ويحاول تقصّي أحوال الطَّقس خارجاً دون أن ترى عيناه الضَّوء، فيعلم بأنَّ الجوَّ غائمٌ

[10] هربرت ماركيوز **Herbert Marcuse**: فيلسوف وعالم اجتماع ألمانيّ، من روَّاد مدرسة فرانكفورت.

جزئيّاً، فيبدأ بالتّساؤل: عندما تأتي السّاعة الّتي حلمت بها في سرّك، كيف ستكون؟ ما هو ذاك الشّعور الّذي سينتابك؟ يفكّر حمدي باستمرار؛ حيث لا تني الأسئلة الوجوديّة تقرع ذهنه ولا تتركه سالماً دون أن تعبث به، فحمدي هو ذاك الشّابُّ الّذي ولد في مكانٍ يعجُّ بالتّناقضات، وهو يحاول ألّا يبتلعه النّهر، ألّا يشرب من نهر الجنون بتاتاً، ألّا ينجرف معه على الإطلاق، فيختار الانسحاب حلّاً.

يتذكّر حمدي أنّ الانسحاب يزيد من الاغتراب، وأنّ النّفس الإنسانيّة المغتربة أمامها ثلاثة بدائل حتميّة: إمّا الانسحاب أو التّغيير لكلّ مّا هو سائد أو القبول والإذعان علناً والرّفض ضمناً لواقعٍ جارفٍ لا يستطيع أحدٌ أن يهرب منه.... أصمتي أيّتها الفلسفات اللّعينة الّتي لا عمل لكِ إلّا تجريف تلافيف الدّماغ... يصيح بعصبيّةٍ غير مألوفة ثمّ يفكّر فجأةً بالانتحار، فهذه الفكرة لا تني تستمرُّ في نخر رأسه، لكنّه لا يستطيع تفسير هذا الارتباط

السَّاذج بالحياة وعدم قدرته على القيام بهكذا فعل، فيحاول أن يهزأ من وجوده ومن كلّ من حوله ثمَّ يأخذ وضعيَّة المعتدل ليعدّل من موقفه، فالمثقَّف الموضوعيُّ لا يجب عليه أبداً أن يتسرَّع في إطلاق الأحكام، المثقَّف الموضوعيُّ لا يعمّم أبداً.... المثقَّف الموضوعيُّ.... كلمة مضحكة حقَّاً.. مثقَّف في مكان لا ثقافة فيه! يطلق قهقهةً خفيفةً وشامتة متهكّماً كعادته.

آمان لهذه العبارات الرَّعناء الَّتي تثبّت الواقع، ولا تغيّر شيئاً.

لم يستطع حمدي أن يرى أمام عينيه إلا التَّعميم.. الجميع نسخ.. نسخٌ جميلةٌ ودودةٌ وشريرةٌ تلبس أقنعة الإنسانيَّة والخير والحبّ، لكنَّها تنزعها بعد انتهاء المسرحيَّة؛ شكراً إرفنغ غوفمان[11].. نحن ممثّلون بارعون على خشبة المسرح –الحياة، لكنَّ التَّمثيل في جوهره ليس شيئاً سيّئاً على الإطلاق؛ فهو محاكاة للواقع إلَّا أنَّه

[11] إرفنغ غوفمان :**Erving Goffman**عالم اجتماع كنديّ، يشتهر بنظريَّة التَّمثيل المسرحيّ في علم الاجتماع.

عندما يُستحال التَّمثيل ركناً مفصليَّاً من مفاصل الحياة برمَّتها ويغدو النّفاق سيّد الموقف يُصبِح التَّمثيل عندها إثماً وخطيئةً.

عذراً أيُّها السَّادة، فحمدي تلك الشَّخصيَّة الفنتازيَّة الحالمة بواقعٍ أفضل، شخصيَّةٌ تبلع الحياة يوميَّاً وتتقيَّأها على هيئة قاذورات لا مناص منها، إنَّه إنسان عاديٌّ توفيقيٌّ يتقبَّل الشَّقاءات والكوارث برواقيّة بقرةٍ تحت المطر؛ كإنسان ويلسون[12] تماماً، تراه تارةً كميرسولت[13] وتارةً كسيزيف[14] وتارةً أخرى كسامسا[15] الحشرة القذرة الَّتي تكنسها الأسرة في نهاية المطاف... لكنَّ الغريب في الأمر أنَّه لا يزال حالماً.

---

[12] كولن ويلسون :**Colin Wilson** كاتب إنجليزيٌّ، له مجموعة كبيرة من الكتب والرّوايات، من أشهرها كتاب اللَّامنتمي.

[13] ميرسولت**Meursault:** الشَّخصيَّة الرَّئيسة في رواية الغريب لألبير كامي.

[14] سيزيف **Sisyphus**: إحدى شخصيَّات المثيولوجيا الإغريقيَّة.

[15] غريغور سامسا**Gregor Samsa:** الشَّخصيَّة الرَّئيسة في رواية المسخ لفرانز كافكا.

يفتح حمدي عينيه في كلّ صباح حتَّى يرى، فيمنعه ضباب الواقع من الرَّؤية ليمشي ببلادة علقةٍ لا تكترث لأيّ شيء... علقةٍ تمضغ الواقع وتقهقه ضاحكةً على مهازله، لكنَّها علقةٌ تحمل صراخاً مكتوماً لا يستطيع أحد سماعه. حمدي العلقة... وهي هو، في معادلةٍ لا تترك أحدهما بمعزلٍ عن الآخر... ربَّما لا يمكن أن ينفصل الإنسان عن أخوته من الكائنات الأخرى، وربَّما هذا التَّعالي الإنسانيّ عن غيره من الكائنات هو هراء لا طائل منه.

لقد مضى عامين على البعد، فحمدي لم يعد لديه أيُّ أصدقاء.. كان هائجاً كنهرٍ متدفّقٍ في زمن الخير.. منطلقاً للحياة، محبَّاً، حالماً، عَابثاً، مغامراً، يفتح جناحيه ليضمَّ الوجود برمَّته، إلَّا أنَّ الحياة لن تسمح له بأن يكمل القصَّة بأكملها، لن تسمح له بالاستمرار بعد، فتقصُّ أجنحته وتشذّبها، وينزع الأصدقاء – بدورهم– أقنعتهم/ن ويبرزون وجوههم/ن الحقيقيَّة ويصفعون وجه

حمدي الصَّافي الَّذي لا أقنعة له... يصفعونه بكلّ ما أوتوا من قوَّةٍ وخباثةٍ.. فيبقى حمدي وحيداً كنهرٍ جفَّت به الحياة، وتبتر أطرافه.. ويتقلَّص كلُّ شيء. وعندها يتحوَّل الجموح إلى إذعان، والهيجان إلى انصياع، ويُلجَم حمدي ويُختزَل ليبقى في غرفته المنكبَّة في إحدى حارات بيوت الصَّفيح، حيث لا يُسمَع هناك إلَّا صياحُ الفقراء وصرخاتهم الَّتي تخترق مسامات جسده وتفتّته.

هكذا هو الحال، فكلُّ الأشياء تنبري وتُشذَّب: الأحلام، الصَّبوات، الواقع، الرُّؤى، الطُّموحات، الجنوح... ويبقى حمدي قابعاً في زاوية الغرفة هناك، حيث لا صوت ولا رائحة ولا طعم، عندها يصبح الكلام سِكيناً جارحاً وناخراً لكياننا الوجوديّ، ويصبح الصَّمت بديلاً لا مفرَّ منه، فلم يعد في الإمكان قول أيّ شيء، فكلُّ ما يجب أن يُقال قد قيل...

تحضن يدّي حمدي بعضها البعض لتختبرا وحدته الكاوية والجوفاء، ولتتحسَّسا مرارة المضي قدماً دون أحد، فيبدأ بالذّبول

والأفول... فاسمه الَّذي كان، لم يعد كما هو من قبل، فهو الآن مجرَّد فراغٍ وجوديّ غير موجود، مجرَّد كائن يعيش بلا صوت أو حراك.. يمشي على مهل حتَّى لا يُسمَع دبيب مشيته خشيةَ الضَّجيج... لا صوت لحمدي، لا وقت، لا كلام.. لا زمان له ولا مكان..

يقهقه حمدي ضحكاً على مهازل العالم، يفتح فاهه ويتلوَّى كأفعوان، كشخص يضحك على الوجود، كشخص فاقدٍ لعقله أو كشبه إنسان ربَّما... آمان لحمدي الشَّابّ... آمان للقفزات.. للسَّير اللَّيليّ.. آمان لأضواء المدينة اللَّيليَّة.. لرقصة زوربا والسَّعادة الغامرة، لبيت دانا الحرّ، لحائطها الحرّ، للوحاتها المفعمة بالانعتاق... آمان للفنّ والفنَّانين... وكم من آمان!

لا مناص، فالزَّمن لا يعطينا كلَّ ما نريد، ولن يسمح لنا دائماً بأن نكمل كلَّ شيء، فدانا غادرت بنصف قلب وحياة مكتملة، وشبَّان المقاهي والحانات لم يعودوا قادرين على الشُّرب أكثر ممَّا مضى،

والشَّارع الأثريُّ لم يعد كذلك، والحديقة الَّتي تجمع تنوُّعات الصّبية المتمرّدين ذوي العيون البرَّاقة اللَّامعة والحالمة بعالم أفضل لم تعد على حالها... إنَّ أحلامهم بِيَدّ طريّةٍ تضمُّ قلوبهم الحائرة وأحلامهم المبعثرة وبزمانٍ أفضل أصبح شيئاً من الماضي.

لا صوت للواقع إلَّا صوت الجشع والبؤس، لا مكان لحمدي ولهيبيي[16] العصر.. فالواقع يبتلع الأحلام والصَّبوات والرُّؤى.. الواقع صخرةٌ جارفة، صخرةٌ بائسة مضحكة لا أهمّيَّة لها على الإطلاق، ولا جدوى لها إلَّا قتل أحلام الصّبية... الواقع أمٌّ جافية ورحمٌ قاسي يغرز سكاكينه في أحشاء الأحلام ويبقر بطون الحالمين... لا وقت للواقع، ولا منطق... لا لون له ولا عمل.... الواقع؛ ما أحقر هذه الكلمة!

---

[16] هيبيي: أيّ الهيبيّين، من الهيبية.

في نهاية المطاف لا يمكن القول إلَّا إنَّ الواقع يبقى واقعاً وتبقى رياحه الخشنة تهبُّ على وجه حمدي العدميّ في كلّ صباح، لكنَّه يبقى متعجّباً من قدرته على الاستمرار والمضي قدماً، آملاً بيومٍ ما، تدرُّ فيه السَّاقية ماءً سلسبيلاً لا ينضب، فهل هي الأيَّام تحمل في طيَّاتها شيئاً سوى الشَّفاء؟ هل يتغيَّر الواقع؟ هل تتحقَّق الأحلام؟ هل يأتي ذاك اليوم الَّذي يضمّد جراحنا؟ وهل لهذه الأسئلة البديهيَّة- المعضليَّة من إجابات؟

شِذرات

إلى "أمير" الَّذي طواهُ الرَّدى في نصٍّ نثريّ باهتِ اللَّونِ دونَ أن يعرِفَ شيئاً أو دون أن تُتاح لهُ الفُرصةُ لأن ينظرَ إلى المرآةِ؛ ولو قليلاً.

شوق

كلُّ الكتاباتِ الَّتي أتلفتُها مُكرَهاً منذُ ثلاثِ سنينَ مضتْ، لكنَّهُ الشَّوق الَّذي يعرِفُ كيفَ ينخرُ جذوريَ وأحشائيَ بتمرُّس.

يجرشُ كياناتيَ ويدهسُها ثُمَّ يمدُّها كعجينةٍ طريَّةٍ مُرقَّقة.

إنَّها مُصيبةُ الكتاباتِ الَّتي لا تموتْ، وأَزْمةُ الأفكارِ الَّتي لا تجفّ.

كنتُ أركضُ لألحقَ بالحافلة، وأَصبُرُ على ألمِ مرورِ الوقتِ رُغمَ قُربِكَ الشَّديد.

أنتظرُ شهوراً طويلةً، وأُصبّرُ نفسيَ على ألمِ الفراقِ، وأهمسُ في أُذُنِ ابن عربيِّ "كلُّ شوقٍ يسكُنُ باللّقاء لا يُعوَّلُ عليه".

أَصبُرُ على ألمِ احتضارِ الوقتِ في عالمٍ فضفاضٍ لا مجالَ فيهِ للصَّبرِ، وأكتبُ لكَ وهديرُ مُحرّكاتِ السَّيَّاراتِ يخرُّ في رأسيَ الَّذي يُعشعِشُ فيهِ الصُّداعُ وتستعمرُهُ الأفكارُ الحادَّة.

أذكرُ رائحةَ الجمالِ الَّتي لا تموتْ، وأرفضُ كلَّ أيديولوجيَّاتِ الحداثةِ الَّتي تمنعُ التَّقوقعَ والأحاديَّة، وأرفعُ أصبعيَ أمامَها دونَ مُهادَنة.

أحسُّ بذاتيَ الَّتي تحترقُ في الفرنِ حتَّى تصيرَ قابلةً للنَّهشِ أكثر..

أتذكَّرُكَ في أيَّاميَ كُلِّها، ويعودُ بيَ الوقتُ إلى سنواتٍ أشعرُ وكأنَّها لا تبرحُ ماثلةً أماميَ بلونِها الجِلديّ الأبيضِ الَّذي يفرُكُ قلبيَ ويحفُّهُ كأسفنجةٍ جافَّةٍ بلا ماءٍ يُبلّلُها.

إنَّهُ الشَّوقُ الَّذي لا يخضعُ لمنطقِنا المفهوم، ولا يُجيدُ المُوارَبة.

تشظّي

مع مرورِ الوقتِ تصبحُ الأشياءُ أكثرَ ائتِلافاً عندَها تعتادُ هضمَ الألمِ بمراسٍ، وتبتلعُ جزيئاتَهُ دونَ أيَّةِ صعوباتٍ، ثُمَّ تستسيغهُ بصدرٍ رحب.

تحملُ سكينَ الوحدةِ وتغرزُ ضلوعَكَ.. تصبرُ على طعناتِها في خاصرتِكَ اليُسرى، وتُلاعِبُ ندوبَكَ وتُهادِنُها بآنٍ معاً.

تستيقظُ في صباحاتِكَ الذَّاويةِ والخاويةِ مِنْ كلّ شيء.

ماذا تنتظر؟ أيُّ تلاشٍ هو أنت؟ أينَ نقوشُ المراهقِ ووجوديَّتُكَ المُشتعِلة؟

تطفو على سطوحٍ ملساءٍ مع رأسٍ يدبُّ على شارعٍ أجوفٍ لا مكانَ فيهِ إلَّا لريحٍ مسائيَّةٍ ولحفيفِ أشجارٍ يُداعِبُ كيانَكَ المُتخبّط.

صمتُكَ الَّذي يلجُّ المكانَ لتسمعَ دبيبَ كلّ الَّذينَ يسيرونَ دونَ أن تُحرّكَ ساكِناً.

مُحاولاتُكَ الدَّائمةُ لأن تترعَ العالمَ بأسرِهِ، ثُمَّ ترميهِ بكلّ ما تحملُ من قوَّةٍ لتنتشرَ عدميَّتَهُ وتناقضاتَهُ في كلّ مكان.

في نهايةِ المطاف، ترمي كلَّ أسئلتِكَ خارجاً وتتركُها في السَّراديبِ دونَ أيَّةِ إجابات.. تتركُها حتَّى تتخمَّرَ عبرَ الزَّمنِ، وتتراكمَ في عِدادِ كلّ الأسئلةِ الَّتي لا تموتُ وتحيا.

ركامٌ أحمرُ اللَّون

هدوءٌ يعمُّ المكان.

قرقعةٌ لكلّ شيءٍ حولكَ إلَّا أنَّكَ خامدٌ في اللَّامعنى.

تنثالُ الجملُ على جسدِكَ الرَّطب: المرأةُ والإبداع، الأدب، الطُّبُّ والأدبُ معاً، "المرأةُ لا تُولَد امرأةً بل تُصبِحُ كذلك"، فرجينيا وولف انتحرتْ جرَّاءَ كتاباتِها.

وأنتَ تسيرُ بخفَّةِ الطَّريقِ ذاتِه- شارعُ الأشجارِ المكرورِ لثلاثِ سنينَ مُتوالية.

أحمرٌ هو أنت.. كيفَ تموتُ وتعيشُ وترتديَ الأحمرَ، مُوارياً كلَّ كياناتِيَ الَّتي تكرهُكَ وتحبُّكَ بكلّ عبثيَّتِها؟!

لم تختلفْ كلُّ الحركاتِ الهاربة؛ لا بدَ لكَ منْ موتٍ مجازيٍ أيضاً.

مسائيَ ناعمٌ ووجوديَ خفيفٌ لا يني يُهادنُ الهواءَ الرَّطبَ مخافةَ الإزعاج.

كنتُ قد اعتَّدتُ في طفولتيَ إيقافَ تنفُّسيَ عندَ كلّ المواقفِ الغريبة؛ أوقفُ أنفاسيَ وأهربُ من عالمٍ يعجُّ بالغرباء.

أتأمَّلُ الصَّابون، وأسمّيكَ "أحمر" بلونِ الدَّمّ حينَ تتماهى الألوانُ مع ذواتِنا.

أسيرُ وحديَ في نهايةِ المطافِ مُردِّداً عبارةً واحدة: "السَّفلة كلُّهُم بلونٍ واحد".

لا شيءَ سوى الغياب

لا وقتَ للذَّاكرة.

تسحبُكَ الأحداثُ إلى الماضي فتسمعُ صراخَ درويش، وتمتثلُ انفعالاتِهِ أمامَك، ويدوي صوتُه في الأفقِ بنبرةٍ حادَّةٍ: "ما أكثرَ الماضي!".

رغبتُكَ الدَّائمةُ بقلبِ الأشياء، وتغييرِها لتُؤكّدَ قدرتَكَ على الاستمرارِ رغمَ وُعورَةِ الطَّريق.

مِبضعُكَ الأدبيُّ الَّذي يُميتُ من يريد ويُعيدُ إحياءَهُ من جديد.

روحُكَ المليئَة بالضَّوء، وبالهواءِ الطَّلق، وبالتَّنوُّع، وكأنَّكَ تُريدُ أن تُخبِرَ العالمَ أنَّكَ كإيكاروس، إلَّا أنَّ أجنحتَكَ الشَّمعيَّةَ مازالتْ قادرةً على تحمُّلِ أشعةِ الشَّمسِ أكثر.

روحُ الفقراءِ الَّتي تُعاقِرُ أفكارك، التَّدرُّج، التَّغيُّرُ الاجتماعيُّ، دهاليزُ العالمِ بأسره، اغترابُكَ.. كلُّ المفاهيمِ تتوقَّفُ في لحظةٍ ما.

لا يُمكِنُ لنا استحضارُ كلّ شيءٍ في لحظةٍ ما... أذكُرُ دروسَ الفلسفةِ وترديديَ الدَّائمَ لعبارةِ "الانتباهُ أشبهُ بالمصفاة".

واليومَ استخدمُ مفاهيمَ الأمس، ولاحقاً سأستخدمُ مفاهيمَ اليوم!
هي هكذا دوامةُ الأحلامِ والرُّؤى، ومتاهةُ الواقعِ والحقيقة.
تسمعُ عبارةً مُؤتلَفةً بشكلٍ مُفاجِئٍ لتنهي بها كلَّ جدلَكَ: "لا شيءَ سوى الغياب؛ فالموتى لا يعودونَ إلى منازلِهم عندَ المساء".
تسحبُ استعارةُ النَّهرِ المُتدفِّقِ كياناتِكَ، وتغسلُها بمياهٍ عكرةٍ وآسنة ثمَّ تصحو على مهلٍ لتكتشفَ أنَّ لغةَ الواقعِ هي لغةٌ بارمانيديسيَّةٌ بامتياز.
(لا جديدَ تحتَ الشَّمس) تكتبُها على خزانتِك، وتنطلقُ في صباحِكَ المُعتاد إلى العملِ لتكونَ إنساناً هلاميَّاً حداثويَّاً بلا وجه أو ملامح!

طفولةٌ ما

أرفع صوتي عالياً للشَّمس

أرفع وجودي العائمَ في الفراغ

لا صدى لصوتي

ذكريات الطُّفولة الجِلديَّة.. الضَّوء.. غروب الشَّمس..

الجبال الخضراء.. الأحجار السَّوداء.. رسومات المنازل المتواضعة..

أرفع صوتي عالياً للشَّمس

ما أسوأَ العمر! وما أبدعَ الطُّفولة وما أنقاها!

أرفع وجودي العائمَ في الفراغ

لا صدى لصوتي

الأخشاب.. الأرصفة.. العمر.. "الحياة"؛ سؤالي الأوَّل..

الفلسفات البسيطة والخالية من تعقيدات العمر.. اللَّون الأحمر..

بقايا صور دماغيَّة نحملها عن مكان ما لم يزل جاثماً أمامنا..

الجِلد مجدَّداً..

الوردة الحمراء في العاشرة من العمر.. والجِلد يعتمر كياناتك..

حُبلى هي الأفكار وعقيمة هي الوقائع!!

أرفع قبعتي عالياً للشَّمس وللصَّباحات البيضاء المائلة إلى الزُّرقة وللطَّفولة القابعة في أعماقنا ولا تموت.

إلى شكلٍ ما

يلتهمني الوقتُ وأنا أرى وجوهَ المارَّةِ تُحدّق بي، لكنَّني أسيرُ بلا غرابةٍ في شوارعٍ اعتادتْ غربتي واغترابي.

هدوءٌ عارمٌ في المكان، ووجوهُ كلّ من كانوا ما زالتْ تُلاحِقُ كياناتي.. تبقى وجوهُهم ماثلةً أمامَ عيني بلونِها البُنيّ كأنَّها أداةُ تحميضِ الأفلامِ الَّتي كنتُ أخافُها وأنا صغير، ومازالتْ رائحتُها عالقةً بأنفاسي إلى يومنا هذا، ومازلتُ أصابُ بالدوارِ والذُّعرِ عند استحضارِ ذكراها.

يا لها من طفولةٍ مُحاطَةٍ بالخوف.. الخوف من الآخر، من المجهول والمعلوم ثمَّ ترمي بكَ في نهايةِ المطاف مُتحدّثا رسميَّاً باسم الحبّ والخيرِ بوجهٍ هلاميّ لا ملامحَ فيه.

مخادعونَ هم من مرُّوا بلا وجوهٍ ولا كُنه!

مخاوفي الَّتي لا تزول.. هلعُ المكان وصوتُ جعجعةِ كلّ من حولِك.. لا مكانَ يتَّسعُ لذواتِنا الهجينة في عالمِ الآلةِ والضَّجيجِ والرُّعبِ الإنسانيّ.

أهلاً بكَ أيُّها السَّائحُ الجديد!

أُلوّحُ لكَ عالياً بالانتظار

لكَ أُشهِرُ أسلحتي، ولكَ أرسلُ الكلمات

تجتاحُ عوالمي آفاقٌ كبيرة :

نصيحةُ الطَّبيبةِ بالشَّمس، مقعدُ الحديقةِ الماثِلِ أمامَ الباب، الفراغ، الممرَّاتُ الخاليةُ من ضجيجِ الإنسان، صمتي الدَّاكن.

حقاً في الانتظارِ فلسفةٌ ما!

صباحي الحيَّويّ الَّذي يُحيّي الخيرَ ويومِئ لي بأنَّه مفتاحُ كلّ شيء.

غرابـةُ الوقـائع.. وأنـتَ مـا زلـتَ تعتمرُ خواطري.. لـكَ أكتـب وأحملُ صورَكَ في ثناياي عسى أن أراكَ، ولو في الغياب.

ما أجملَ اللُّغة!.. وما أبدعَ الانتظار!

عَوَد

لا مناص فالواقعُ يقهقُ ضاحكاً من حولِك . يلوكُ أحزانَكَ، ويطحنُكَ برحى الحياة، ثمَّ يرقصُ هازئاً بحالِكَ مقوّضاً إيَّاكَ في اللَّامعنى.

أنت.. العوالمُ الدَّاخليَّةُ اللَّعينة.. الآخر ((جحيمُ سارتر)).

وههنا أنت؛ تكتبُ من هنا متوارياً تحتَ اللَّحدِ في ظلامٍ دامسٍ يصفعُ وجهَكَ ويطالبُكَ بأن تستقيمَ وبأن تتضرَّعَ لكلّ شيء، ثمَّ تخرُّ في لِجَةِ الحياة حشرةً ودودةً كحشرةِ كافكا الَّتي تسكنُ الفراغ.

الآخر هو الجحيم.. تكتبُها وترفضُ أن تتراجعَ عنها في محاولةِ شيطنةِ من حولِكَ كافَّة.

أهلاً شتراوس من جديد لماذا تحاولُ إبطالَ مفاهيمي؟ ((الجحيمُ هو نحن)).. أقول: ما الفرق؟

يقول في محاولةٍ مكرُّورةٍ لكلِّ ما قيل: نحنُ أشرار! أقول: والآخر هو الجحيم.

ينتهي نقاشُنا السَّيكولائيّ كأيّ نقاشٍ بيزنطيّ شكلانيّ ومفرَّغ من كلّ شيء.

فجأةً يصيح فريدي ميركوري:

You will remember when this is blown over and everything's all by the way.

لا مناص دائماً وأبداً، فخفَّةُ العالمِ تدعوكَ لأن تسلّمَ نفسَكَ للهباء!

متاهاتٌ وعوالمٌ.. وتنفس

تنطلقُ من مقدّمةٍ ما

عالمٌ جائرٌ داخلَك.. ضحب العوالم الأخرى أيضاً

من أنتَ في خِضم هذا العماه الوجوديّ؟

ربَّما مُهرِجٌ بارع.

يصيح حامد في إحدى زواياه: "ميّة مرَّة راح أعود مصقول الحُسام."

اللَّونُ الأحمرُ يختلطُ على عينيكَ المثقَّلتين بالرَّمادي وبالحياة ...

حاولْ أن تعتذرَ لسوءِ فهمِكَ عِبرَ نافذةِ الباصِ المُكتشَفةِ لتوها.

قطراتُ المطرِ الهادئةُ الَّتي لم تغيّرْ مزاجَكَ اللَّامتعيَّن في لحظةٍ ما.. موسيقا القِدَم تنخرُ رأسَك مع بوقِ "إيريك ترافيز" الَّذي يحكي مخاضاتٍ لا تُفهَم، والَّتي تشدُّكَ للخلف، ثُمَّ تصفعُ كينونتَكَ الهشَّة.

يحوّل حامد نغمته:

"يمَّا مرَّت سنين.. العمر ماشي لوين يمَّا، لوين؟
يمَّا الموعودين باؤوا مكسوفين لسنين."

لي ولاستحقاقي

محطَّةُ الباصِ الصَّباحيَّة لا تني تغيّرُ مجالسنا قليلاً.. دخولٌ جديدٌ إلى عوالمَ شُيّدتْ في أدمغتِنا على أنَّها صالاتٌ كبرى تعجُّ بالمكان إلَّا أنَّكَ تتفاجئُ من تقلّصِ خيالنا إلى العدم..

وسائلٌ بدائيّةٌ تحاولُ الهربَ منها دونَ مفرّ.. ما أضيقَ المكان رغمَ اتّساعهِ النّسبيّ!

أحاديثُ الماضي المثاليّ والبطولاتُ الَّتي لا تطيقُ سماعها إلَّا أنَّكَ أضعفُ من أن تقولَ لا.

عوالمُ كبرى ومتَّسعة تُطبِقُ الخناقَ على وجودِكَ، إلَّا أنَّ اثنين سنتيميتر يكفيان لتمشي وحدكَ في زقاقٍ ما ينفتحُ على فضاءٍ رحب.

أحلامي الكبرى والواقعُ الجشيم الَّذي لا يني يصفعني مُذكّراً إيَّايَ بأنَّني هشٌّ ورعاعة.

أحلامي الكبرى واستحالةُ التَّحقيق.

ماتتْ أحلامي كلُّها ربَّما البارحة أو ما قبلَ البارحة لا أذكرُ تحديداً.

من أنا بعدَ ورقةٍ صغيرةٍ قضَّتْ مضاجعَ وجودي الخفيف! خفيفةٌ هي كينونتي.. وجسمي مثقَّلٌ بالكدماتِ وبالنُّدوب.

الموسيقا تنخرُ رأسكَ: "هذا الطّريق أخرتو لحن حزين!!".

الأفكارُ هي المهربُ، هي الملاذُ، هي الملجأُ..

وجودٌ متمرّسٌ في كَبحِكَ.. ترتيباتٌ هيكليَّةٌ سستماتيكيَّةٌ تحيطُ بالمكان.. وأنتَ وحدكَ مجدداً في اثنين سنتميتر لا تتَّسعُ إلَّا لعهنك.

وجهُكَ المتبرّمُ في باصاتِ النَّقلِ العامَّة.. سخريتُكَ من هذا العالمِ الجائر!

آه، كم أنتَ لا تساوي أيَّ شيء!